Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

الشيخ عبد السلام الأسمر والحكمة المتعالية

مقاربة في الكشف عن عيون أفكاره في مقاصد العقيدة والشريعة وأسرارهما البديعة

د. محمد عبدو*

مقدمة

مقاصد الشريعة مطايا ذلل، حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمتها، فأوردتهم شأو العلاء، ومقامات الأولياء والأصفياء، ومن هؤلاء الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري، فإنه أخذ بمجامع هذا الفن وأصوله، وارتقى فيه إلى مقام لا يدرك شأوه. وأنا أزعم أن من أراد أن يسلك أقصد المسالك إلى أسنى المقاصد، فلينظر في تراث الشيخ الأسمر، فإنه بما انطوى عليه من قواعد مقاصد الشريعة، وبما اندمج عليه من أسرارها وحكمتها المتعالية، يهدي إلى الطريق التي من سار فيها صرف عنه السوء. يعرف له ذلك من له أدنى أنس برسائله وتقاييده.

والشيخ الأسمر أقدر على ذلك، بما هو عليه من الغوص على الحكم والمعاني، كما تشير إلى ذلك كلماته، واقتباساته من مشكاة أئمة هذا الفن، الذين كانوا في مقاصد العقيدة والشريعة وأسرارهما لا يجارون غوصا وفهما.

وعلى الرغم من أن المحقق الأسمر قد ضرب أنف هذا الأمر وعينه، وقلب ظهره وبطنه، فإن الغالب الأكثر من أهل العصر الذين عنوا بمقاصد الشريعة، من أول بروز هذا

* جامعة الحسن الثاني، المغرب.

العلم في الثمانينات إلى اليوم، وقد ألفت كتب كثيرة، وأنجزت دراسات غير قليلة، لا نلفيهم يدرجون الشيخ الأسمر ضمن أعلام هذا الفن ورفعائه، مع أنه توحد فيه والزمان مشحون بأخدانه، كما لا نجدهم يستندون إلى رسائله مصدراً من مصادر المقاصد، ظناً منهم أنها غير حفيلة بهذا الفن، فألقوا حبلها على غاربها، ولم يعيروها اهتماماً، فكان من البديهي أن يتوارى عنهم الفكر المقاصدي الأسمري بالحجاب، وأن تنتبذ منهم كلماته مكاناً قصياً.

وإذا كان الشيخ الأسمر يركب متن لجة الشريعة ليبصر عجائبها، ويسافر في جزائرها لاجتناء أطايبها، ويغوص في عمق أحكامها فيستغني بنيل جواهرها، فإن قوماً آخرين حرموا أنفسهم من درر الشريعة وجواهرها، بإدمان النظر على ظواهرها.

والشيخ الفيتوري حينما ينحو هذا المنحى في تعامله مع الشريعة، فإنه لا يرفع ظواهرها، ولا يجرد النظر إلى بواطنها. ولا ينبغي أن يكون كذلك، ولكنه يسلك في كل الأمور مسلكاً وسطاً، وينتهج منهجاً قواماً، فلا هو بالحشوي فيجرد ظواهر الشريعة، كيف وردت، وعلى الوجه الذي وردت، وباللفظ الذي وردت فيه، من غير غوص على خفيات أسرارها، وتشوف إلى العثور على حكمتها المتعالية. ولا هو بالباطني فيصرف الألفاظ عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، كدأب الباطنية في التأويلات، فإنهم يصرفون ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا تسبق منها إلى الأفهام فائدة.

ويكفي أن أشير في هذا المقام، إلى أن الكثير من القواعد المقاصدية، التي استظهر في بيانها أئمة هذا الفن، نجد لها صدى في رسائل الشيخ الأسمر، ومحررة على وجه لا يُلفى له نظير.

ويتولى هذا البحث كشف الغطاء عن عيون أفكار الشيخ الأسمر في أسرار العقيدة والشريعة، وإبراز ريادته في هذا الفن، بحيث أنطق بلسانه وانظر بعينه، ولنرسم لذلك مطالب تشكل دعامات هذا الفكر وأركانه:

المطلب الأول

يدعو الشيخ الأسمر أتباعه إلى ضرورة حفظ القلب من الاعتقاد الفاحش القبيح في حق الله عز وجل، وفي حق رسله وفي حق أنبيائه، وفي حق ملائكته وأولياءه،

وجميع خلقه، وألا يعتقدوا إلا ما يوافق الشرع العزيز[1].

والسؤال هنا، إنما هو كيف يمكن للعبد أن يميز بين الاعتقاد الصحيح وبين الاعتقاد الفاحش؟، ومن أين له معرفة كون ما يعتقده موافقا للشريعة ومقاصدها؟

ولذلك، فإن ما صرح به الشيخ الأسمر في باطنه معنى دقيق، ينبغي التنبه عليه، وهو ضرورة صرف الهمة إلى مقاصد الاعتقادات، ومعرفتها معرفة كاشفة عن معانيها المقصودة، حتى تتضح حقائقها اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه.

وهذا المعنى يمكن استنباطه وبدون عناء التفكير مما يقوله الشيخ الأسمر في موضع آخر، فإنه قال: «وعليكم بمعرفة عقائد الإيمان، وهو ما يجب في حق مولانا -جل وعز-، وما يجوز وما يستحيل، وفي حق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وفي حق الملائكة، ومن لم يعرف العقائد فليس بعارف»[2].

فليت شعري إن لم يكن المقصود بعبارة «ومن لم يعرف العقائد فليس بعارف»، هو معرفة معانيها ونكاتها وأسرارها، فماذا يكون المقصود؟.

وبيان ذلك أن كمال العبد إنما هو بمعرفة الله -عز وجل- ومعرفة صفاته وأفعاله، وتدبيره في مملكته. لكن ليس يعرف الله تعالى، ويعرف صفاته وأفعاله، من لم يعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ولم يطلع على مقصود الصفات العليا والأسماء الحسنى وغايتها، ولم يدرك سر الأفعال وعلتها.

فما عقيدة من هذه العقائد الشرعية التي تعبد الله سبحانه الخلق بها لصلاحهم في الدين والدنيا، إلا وتحتها رموز وإشارات إلى معان جلية، ومقاصد كثيرة خفية، يدركها المتأمل في محاسن العقيدة.

فمن عرف العقائد هذه المعرفة فهو الذي يقرب من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة، وهو الذي يقال فيه: إنه عرف الله تعالى حق معرفته، وهو الذي يكاد زيت إيمانه يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.

1- النصيحة الصغرى، للشيخ الأسمر، منشورة ضمن (مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم) لمحمد بن محمد بن عمر مخلوف، وهو كتاب (تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر ﷺ) لمؤلفه كريم الدين البرموني، ص: 258

2- النصيحة الصغرى: 260

ومن لم يعرف معانيها، أو يتفطن لمقاصدها، فكيف يعتقد صدق قائلها فيها؟، وربما يقيم على شيء سنين وأزماناً مما يفسد عليه إيمانه وتوحيده، ويخرجهما عن كونهما واقعين على وفاق المقصود، وهو لا يشعر بذلك.

وقد عبر الشيخ الأسمر عن هذه المعاني في أوجز ما يكون من العبارة حيث قال: « فلا تعتقدوا إلا ما يوافق الشرع العزيز »[3].

ومن هنا، وجب ذكر محاسن العقيدة والشريعة، وذكر لطائف معانيها، وكون المصلحة المندرجة فيها مقصودة للشارع الحكيم، وذلك بقصد التمكين لها في النفوس، وتقريرها على مواردها.

ولا ريب في أن الشيخ الأسمر بما قرر وحرر، يضرب على غرار النبي ﷺ، ويطبع على قالبه، إذ لم يزل النبي ﷺ من مبدأ أمره، إلى نهاية عمره، يتلطف بالخلق، ويستميلهم إلى الحق، ويرشدهم إلى صلاح معاشهم ومعادهم، بتعريفه إياهم بربهم تبارك وتعالى، وتعليمهم حقائق التوحيد، والآخرة وحقيقة النبوة، وحقائق صفاته -عز وجل- الباقيات، وأسمائه التامات تعليما يتجه، أول ما يتجه، إلى مقاصد هذه الأمور ومحاسنها، وما اشتملت عليه من الحكم الحسنة، و الفوائد المستحسنة، والغايات المحمودة التي تدل على حكمته تعالى البالغة.

وحوله ﷺ، صحابته الكرام ﷺ، أعرف الناس بمعاني تلك الاعتقادات ومقاصدها، وأحراهم بالوقوف على كنهها ودرك أسرارها، فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعاصروا النبي ﷺ، بل لازموه آناء الليل والنهار، مشمرين لفهم كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به أولا، ولاتباع سبيله في الرفق بالخلق والإحسان إليهم، بإرشادهم إلى مقاصد عقائدهم المقربة لهم إلى الجنة ورضاء الخالق ثانيا فعلى هذا المهيع جرى الشيخ الأسمر ومن هنا نظر.

المطلب الثاني

من القواعد المهمة التي استظهر الشيخ الأسمر بيانها، تحذيره من المخالفة لما أمر الله به، وعدم التغافل عن السنن التي أمر بها رسول الله ﷺ، والتفريط في الشريعة[4]،

3- النصيحة الصغرى: 258

4- المصدر نفسه: 259

فقال: « واعلموا أن محبته ﷺ لا تصح إلا باتباع سنته، ومن أحبه وادعى محبته ولم يتبع طريقه فهو كاذب في محبته؛ لأن حقيقة المحب أن لا يخالف محبوبه في شيء، وإلا فليس بمحب، وشرط المحبة طاعة المحبوب في كل شيء، وإلا فلا عبرة بها »[5].

ويؤخذ من هذا المسألة أمور:

منها: أن من مقاصد الشارع دخول المكلف تحت تكاليف الشريعة. وبيانه أن الشريعة بحسب المكلفين كلية عامة، بمعنى أنه لا يختص بالخطاب بحكم من أحكامها الطلبية بعض دون بعض، ولا يتحاشى من الدخول تحت أحكامها مكلف ألبتة[6].

وقد سبق التنبيه على هذا المعنى بعض الشيوخ، مثل الإمام الغزالي، فقد ذكر في كتاب آداب تلاوة القرآن من (الإحياء)، أنه يجب على العبد التالي لكتاب الله أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدا أو عيدا فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء، علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]. فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء، وصبرهم على الإيذاء، وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى. وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر الله الكافة بشكر نعمة الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: 231]، وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: 3]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: 55] ، ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 20]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138]. وإذا قصد بالخطاب جميع الناس، فقد قصد الآحاد، فهذا القارئ الواحد مقصود، فماله ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ

5- النصيحة الصغرى: 261

6- كتاب المقاصد من (الموافقات): 186/2

لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: 19][7].

ويتشعب عن هذا المقصد فائدة مهمة، وهي أن بعض من يدعي التصوف، يتوهم أنه قد «بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة، وحل له شرب الخمرة والمعاصي وأكل مال السلطان. فهذا ممن لا شك في وجوب قتله، وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر، إذ ضرره في الدين أعظم، و ينفتح به باب من الإباحة لا ينسد، وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقا، فإنه يمنع عن الإصغاء إليه لظهور كفره. وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع، ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم، إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته في الدين، وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصي بظاهره وهو بباطنه بريء عنه، ويتداعى هذا إلى أن يدعي كل فاسق مثل حاله وينحل به عصام الدين»[8].

ولأجل هذا حذر الشيخ الأسمر أتباعه من الكسل عن الصلوات المفروضة في أول وقتها في الجماعة، والنوافل والذكر والأوراد وجميع أفعال الخير[9].

الأمر الثاني: أن من مقصود الشارع في الأعمال دوام المكلف عليها[10]. فلا يكفي في نيل السعادة استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام في جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن السعادة قال: «طول العمر في طاعة الله»، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر، كان الثواب أكثر، والنفس أزكى وأطهر، وكمالها أتم، وابتهاج صاحبها بجمالها عند التجرد عن علائق البدن أشد و أوفر[11].

المطلب الثالث

لقد قام البرهان قياما لا يشك فيه، على أن السعادة وراء الإيمان والمعرفة. وإذا كان

7- كتاب آداب تلاوة القرآن من (الإحياء): 399/1.

8- فيصل التفرقة: 90

9- النصيحة الصغرى: 259

10- كتاب المقاصد من (الموافقات): 184/2

11- ميزان العمل: 68

كـذلك، فـاعلم أن مـذهب الـشيخ الأسمر على أن الإيمان بمجرده غير كاف لنيل السعادة الأبدية، والقرب من الحضرة الإلهية، بل لا بد من تقديم حرث الآخرة والسعي لها.

وقـد نـبه الـشيخ الأسمر على هذا المعنى حيث قال: «وعليكم بتعلم العلم الواجب عليكم الـذي يقربكم من ربكم مثل التوحيد والآداب الشرعية، وما تصححون عبادتكم به مـن الطهـارة والـصلاة والـصوم والـزكاة والحج، وعلم الأحكام لمن احتاج إليه منكم، ولا تفعلـوا فعـلا حتى تعلموا حكم الله فيه، فإن لم تعرفوا فاسألوا العلماء التابعين سنة النبي ﷺ، وهم العاملون بعلمهم، وإياكم أن تسألوا الجهال وتقتدوا بهم، فتكونوا مثلهم»[12].

ومـن هـذا الـباب قـوله أيـضا: «فائـدتكم تكـون بـرؤيتي واتـباع الـسنة والحـق والـصواب لا بـرؤيتي فقـط فافهمـوا ومـن ظـن أن رؤيـتي تنفعه من غير اتباعه للطريقة المحمديـة علـى صـاحبها أفـضل الـصلاة والسلام، واتبع هواه وخالف الحق والصواب، واتكل على رؤيتي بلا عمل، فهو على غير شيء، ولا ينتفع بشيء مني»[13].

ولـم يكـن الـشيخ الأسمـر متفـردا فيما ذهب إليه، فإن العلماء الثقات يقررون هذا المعنـى ويـؤكدونه، من ذلك ما ذكره الإمام الغزالي حيث قال ما نصه: «وأما من ظن أن مجرد الإيمان يكفيه فهو جهل بحقيقة الإيمان ... ومن ظن أن سعادة الآخرة تنال بمجرد قـوله: لا إلـه إلا الله دون تحقـيقه بالمعاملة، كان كمن ظن أن الطبخ يحلو بقوله: طرحت السكر فيه دون أن يطرحه، وأن الولد يخلق بقوله: وطأت الجارية دون أن يطأها، والزرع ينـبت بقـوله: بـذرت الـبذرة دون أن يـبذرها. وكمـا أن هذه المقاصد لا تنال إلا بأسبابها، فكذلك أمر الآخرة، فإن أمر الآخرة والدنيا واحد، وإنما خص باسم الآخرة لتأخره»[14].

فاسـتبان بهذا أن العمل تلو الإيمان ورديفه، وأنه مهما رغب العبد في نيل السعادة ولم يكـن معـه إلا أصـل الإيمـان، ولم يساعده حاله، أو قصر في العمل فهو كساع إلى الهيجا بغير سلاح، أو كباز يروم الصيد بلا جناح.

وقـد عـبر التنـزيل عـن هـذا المعنـى بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: 19]. وقـال تعـالى: ﴿ وَأَن

12- النصيحة الصغرى: 273

13- المصدر نفسه: 266

14- ميزان العمل: 94-95

﴿لَيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39].

وكما نرى، فهذا الذي يقوله الشيخ الأسمر ليس من عنده، بل هو موقف مستمد من الشريعة الإسلامية، ومن الآيات البليغة في هذا المقام، كقوله تعالى في سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2]. وهذا مما يكثر وجوده في القرآن. فقد بلغت المسألة بهذا الكلام كمال الكشف والوضوح، وتبين أنه لا بد للعبد أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب، وإلا كان إيمانه وعلمه هباء منثورا.

ومع أن هذا هو المقصود، أعني أنه لا بد للعبد من العمل مع الإيمان، وأنه ينبغي له أن يتعهد بذر الإيمان بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات، ويطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، فإن بعض الناس قد نظروا بالعين العوراء إلى أحد الأمرين، فأقروا بالتوحيد، وادعوا الإيمان، لكنهم لم يوفوا بمقتضى أي واحد منهما، فطرحوا بساط الشرع، وطووا بساط الأحكام، وسلكوا مسلك الإباحيين الذين تأخذهم ترهات كقول بعضهم: إن الله غني عن عملهم.

وظنت طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق[15]، فهذا ظن القاسية قلوبهم، والذين في قلوبهم مرض، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116]، بل الكامل «من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه»، ولا يسمح لنفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة[16].

وهذا الذي يعتقده هؤلاء، جناية على حدقة التوحيد، وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين، فلا جرم تحق عليهم الكلمة بأنهم من الهالكين، ويدخلون في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: 8].

15- كتاب ذم الدنيا من (الإحياء) 297/3

16- مشكاة الأنوار: 32

وقد رد على هذه المغلطة علماؤنا -رحمهم الله-، من ذلك قولهم: وأما الذي يدعي علوم المكاشفة، كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل، ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني، إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه.

فمن عرف الله تعالى، عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة، وأبد عليهم العذاب أبد الآباد، لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28][17]. وإذن فقد تبين أن الأمر ليس على ما توهم هؤلاء، وأنه ليس لهم من التوحيد إلا رسمه دون حقيقته وسره، ومن الإيمان قشرة دون كنهه ولبه.

ثم أقول أيضا إن شاهد ما بيننا وبين القوم ما كان عليه الصحابة ﷺ والتابعون، فإنهم عرفوا أن السعادة القصوى في القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى، وأن القرب منه سبحانه ليس بالمكان، وإنما هو باكتساب الكمال على حسب الإمكان، وأن كمال النفس بالعلم والعمل.

وما لنا نذهب بعيدا، فهذا نبينا سيد البشر -عليه الصلاة والسلام-، مع ارتقائه إلى ذروة المعرفة بالأمور الإلهية ومقاصدها، كان يقوم الليل ويبكي حتى تسيل دموعه على صدره، وقد قيل له في ذلك فقال: « أفلا أكون عبدا شكورا »[18].

المطلب الرابع

لا جرم أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أطباء النفوس، يرشدون الخلق إلى

17- كتاب ذم الغرور من (الإحياء): 3/499-500.

18- هو جزء من حديث عائشة -رضي الله عنها-، حين سألها عطاء: « أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ قالت: وأي أمره لم يكن عجبا ... » الحديث، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء، وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: وأي أمره لم يكن عجبا ... وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث، وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة ابن شعبة. انظر المغني بذيل (الإحياء): 4/108، 116.

طـريق الفـلاح، بتمهـيد الطريق المزكية للقلوب، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9-10][19].

ومـن ههنا جاء الشيخ الأسمر وقال: «ولا منجا أنجا لكم من سنة رسول الله ﷺ، فعليكم باتباع السنة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. قال لي شيخنا رحمه الله تعـالى: الـسنة هـي الطريقة البيضاء، فعليكم بها وباتباع الشرع العزيز وما فرض الله عليكم»[20]. وإنمـا قـال الشيخ الأسمر هذا الكلام، لأنه ﷺ أفاض إلى الخلق ما أوحي إلـيه مـن صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، وأنه ما كتم شيئا من الوحي وأخفاه وطواه عـن الخلـق، فإنـه لم يـبعث إلا لذلك، ولذلك كان رحمة للعالمين، فلم يكن متهما فيه، وعـرف ذلـك علمـا ضـروريا مـن قرائن أحواله في حرصه على إصلاح الخلق، وشغفه بإرشـادهم إلى صـلاح معاشـهم ومعـادهم، فمـا تـرك شيئا مما يقرب الخلق إلى الجنة ورضـاء الخالـق إلا دلهـم علـيه وأمـرهم به وحثهم عليه، ولا شيئا مما يقربهم إلى النار، وإلى سخط الله إلا حذرهم منه ونهاهم عنه، وذلك في العلم والعمل جميعا[21].

لقـد نظر الشيخ الأسمر في أقوال رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وما ورد من الأخـبار في اهـتمامه بإرشـاد الخلـق، وتلطفـه في جـر الـناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحـسين الأخـلاق، وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ودنياهم، فحصل له علم ضروري بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده[22]. لأجل ذلك فإنه مستحق لأن يحبه العبد.

وإلى هـذا المعنـى الإشـارة بكلام الشيخ الأسمر: «وأما النبي ﷺ فلا تحبوا أحدا من الخلق مثل محبته، ولا يكمل إيمانكم حتى يكون النبي ﷺ أحب إليكم من أنفسكم ... فـلا بـد مـن إيثار محبته ﷺ على كل محبوب سوى الله تعالى، لأنه ﷺ هو المنجي لكم من الهلاك، وهو باب الله تعالى»[23].

فهـذا الكـلام مـن الـشيخ الأسمـر يـدل علـى أنـه ﷺ كـان شـديد الحنان والرأفة

19- المضنون به على غير أهله: 133 فما بعدها
20- النصيحة الصغرى: 260
21- إلجام العوام عن علم الكلام: 92-93
22- المنقذ من الضلال: 99
23- النصيحة الصغرى: 261

والـرحمة والـشفقة علـى أمـته، حريصا على أن يجلب لهم جميع الخيور، ويدفع عنهم جميع الشرور، مجتهدا على أن يوضح لهم طرق الخير ويأمرهم بالمبادرة إليها، مسارعا إلى تحذيرهم مما يفضي بهم إلى عقوبة أو لوم أو ضرر دائم، أو جهالة ساترة لما يراد بهم في المستقبل.

المطلب الخامس

ممـا لا شـك فـيه، أن الـصوفية أكثـر الخلـق سـعيا في معـرفة حقائـق الشريعة، وأقـدرهم كـشفا لأسـرارها، وأقـواهم هتكا لأستارها، وأحرصهم طلبا لمقاصدها، طلب دراية لا طلب رواية.

ومـن هـؤلاء الـشيخ عـبد الـسلام الأسمـر، فإنه كان يجعجع عند الشريعة، حتى ألانـت لـه جانـب النجوى، فأفاد من حكمتها المتعالية، وانقلب بحظ وافر من مقاصدها العالـية، فغـدا بحـرا لـيس للبحـر مـا عنده من الجواهر، وحبرا سما على السماء، وأين للسماء مثل ما له من الزواهر، انتظمت بقدره العظيم عقود الملة الإسلامية، وابتسمت بدره النظـيم ثغـور الـشريعة المحمدية، فغاص من العلوم في بحار عميقة، وروض نفسه على دفع أهل البدع وسلوك الطريقة.

قال يقرر هذا المعنى ويؤكده: « ولا يسمى العارف عارفا عند أهل الطريقة، حتى يعـرف مـن هـو علـى الهـدى، ومن هو على الضلال، بعلم لدني من الله تعالى، بل الذي عـرف الله تعـالى لا يخفـى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا في جميع الكون، وهذا مقامي الآن والحمد لله على نعمائه التي لا تحصى »[24].

وصـدق -رحمـه الله-، فإنك إذا تأملت رسالته الموسومة بـ (كلام في المغيبات) أدركت المقام المتعالي الذي تبوأه هذا الإمام الجليل[25].

فمـن اشـتغل بالرياضـة والمجاهـدة، انفـتحت لـه أبواب من الهداية، وانكشفت له حقائق هذه العقيدة والشريعة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة، تحقيقا لوعـده -عـــز وجـــل- إذ قـــال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

24- النصيحة الصغرى: 270

25- كلام في المغيبات، مخطوط ضمن مجموع بالمكتبة الوطنية بالرباط، رقم د 2415، من صفحة 162 إلى 167

[العنكبوت: 69]. وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين، وإليه الإشارة بالسر الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق ﷺ حيث فضل به الخلق. وانكشاف ذلك السر، بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة، ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى، وفي الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم، إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد، واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة، وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه[26].

وما قاله الشيخ الأسمر حق لا ريب فيه، فقد انكشف لي في أثناء الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن أمور، لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، بحيث تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك بالله تعالى وأسرار خلقه عزة، وفي أعطافك ارتياحا وهزة، وترى لك في الفضل تقدما وتبريزا، وفي اليقين سبقا وتحقيقا.

والمشاهدة والتجربة تكفي في هذا بيانا، فناهيك بالعيان برهانا[27]. على أن صحة هذا الطريق في معرفة حقائق الأمور له شواهد من الكتاب العزيز، لا ينكرها إلا معاند متعام.

المطلب السادس

من المقاصد التي استوعب الشيخ الأسمر في بيانها، ضرورة إخلاص العمل لله –عز وجل–، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله: «وإياكم أن تفعلوا شيئا من الأفعال الدنيوية والأخروية لغرض من الأغراض، فالذي عرف الله ودخل في طريقتنا هذه لا يفعل شيئا إلا لوجه الله تعالى، لا لغرض من الأغراض أبدا، والله هو الوهاب، والفقير إذا أحب شيخه لأجل غرض من أغراض الدنيا والآخرة، فقد عصى الله، لأن الحق والصواب أن لا يحبه إلا لله لا لشيء سواه، وصاحب الأغراض عند أهل الطريقة لا عبرة به، لأنه كالمسجون في بيت مظلمة»[28]. وقال أيضا: «وعليكم بالإخلاص في كل فعل من

26- قواعد العقائد من (الإحياء): 133/1، والآية من سورة العنكبوت: 69

27- وللشيخ محمد رشيد رضا بخصوص هذا المقام كلام في غاية الحسن، ذكره في كتابه الوحي المحمدي:171-172

28- النصيحة الصغرى: 272

الأفعال، ولا تعرفوا أحدا إلا الله تعالى »[29].

هناك أمران اثنان يمكن استنباطهما من هذا الكلام:
الأول: ضرورة اعتبار النية في الأعمال.
الثاني: ضرورة إخلاص العمل لله -عز وجل-.

أما الأمر الأول، وهو اعتبار النية في الأعمال، فيشهد لصحته مجموعة من الآيات والأخبار، ولعل أبرزها وأنسبها في مقامنا هذا، قوله ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات »[30]، وذلك إشارة إلى أن الأعمال تابعة لا حكم لها في نفسها، وإنما تكتسب الحكم من الباعث عليها وهو النية[31].

ومن هذا المنطلق، فالواجب على من يزاول الأعمال الشرعية من عبادات وغيرها، أن يحضر فيها النية، وأن تكون نيته موافقة لما قصده الشارع من تلك الأعمال.

ومن أمثلة ذلك، أن يقصد المكلف بوضع جبهته على الأرض الخضوع لله تعالى، ومن أداء الزكاة إزالة رذيلة البخل، ومن الأضحية استشعار التقوى بتعظيم شعائر الله تعالى[32].

فإذا وافق قصد المكلف قصد الشارع أثيب على عمله، أما إذا أقدم عليها وقلبه ذاهل عن مقاصدها كانت عبادته باطلة، وقد تفضي إلى العقاب إذا قصد بها الرياء والسمعة[33].

بيان أقسام الأعمال بالإضافة إلى المقاصد

ويقسم العلماء الأعمال بالإضافة إلى المقاصد والنيات، إلى ثلاثة أقسام: معاص ومباحات وطاعات[34].

29- النصيحة الصغرى: 263
30- كتاب النية والإخلاص والصدق من الإحياء: 479/4، والحديث متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب. المغني: 23/2
31- كتاب النية والإخلاص والصدق: 484/4
32- المصدر نفسه: 486/4 وكتاب الأربعين في أصول الدين: 137-138.
33- كتاب النية والإخلاص والصدق من الإحياء: 4/ 486
34- المصدر نفسه: 487/4

أما المعاصي، فغير مرادة أصلا حتى تعتبر فيها النية والقصد، ولا تنقلب المعصية طاعة بالنية، كمن يطعم فقيرا أو يبني مسجدا بمال حرام، أو يسر عن إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر، فهذا في نظر الغزالي كله جهل، «لأن النية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية، بل قصده الخير بالشر، على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ... فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم»[35].

أما العبادات، فالأصل فيها عبادة الله فقط[36]، فإن خالطتها حظوظ النفس، فللغزالي فيها حكم آخر على ما يأتي بيانه.

وأما المباحات، كالأكل والشرب والوقاع وغيرها، فهذه الأعمال إذا قصد بها المكلف التقرب إلى الله تعالى تصير عبادة، «لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن، فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوي على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه، وتطييب أهله، والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده، فتكثر به أمة محمد ﷺ كان مطيعا بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع، وقصد المكلف الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة »[37].

وينصح العلماء المكلف بالتدبر قبل مباشرة الأعمال، فإذا كان القصد منها دينيا أقدم، وإن كان غير ذلك أحجم[38].

أما الأمر الثاني، وهو إخلاص العمل لله عز وجل، فاعلم أن المكلف إما أن يكون قصده بالطاعات إجلال الله جل جلاله، وتعظيمه لذاته لا لأمر سواه، أي يتجرد قصد التقرب، أو يكون قصده مع التقرب حظوظ نفسه، أو يتجرد حظ النفس، فهذه أقسام ثلاثة، نكشف الغطاء عنها بضرب الأمثلة.

أما القسم الأول، وهو من تجرد قصد تقربه إلى الله -عز وجل-، فهو أعظم المقاصد وأعلاها، وقد صرح الغزالي في كتاب (النية) بأن عبادة الله تعالى على هذا

35- كتاب النية والإخلاص والصدق: 487/4، كتاب آداب الأكل: 23/2

36- كتاب النية والإخلاص والصدق: 489/4-490

37- المصدر نفسه: 490/4-492، كتاب آداب الأكل: 3/2، كتاب آداب السفر: 338/2

38- كتاب النية والإخلاص والصدق: 493/4، كتاب أسرار الحج: 375/1

القصد، يعز على بسيط الأرض وجودها[39]، «ولا يتصور عنده إلا من محب لله، مستهتر بالله، مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة، من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده، لأنه ضرورة دينه، فلا يكون له هم إلا الله تعالى، فمثل هذا الشخص لو أكل، أو شرب، أو قضى حاجته، كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة، وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور»[40].

وأما القسم الثاني، فهو من يقصد التقرب مع الالتفات إلى حظوظ النفس. والأمثلة عليه كثيرة موفورة منها، أن يقدم المكلف على الصوم وفي نيته الانتفاع بالحمية، أو توفير المال، أو يحج وقصده صحة مزاجه بحركة السفر، أو الهروب من أعدائه، أو يغزو ليتعلم أسباب الغزو، أو يتوضأ ليتبرد، أو يغتسل لتطيب رائحته، أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض[41]. فهذه الأعمال لا قيمة لها ما لم يتمحض الإخلاص ويتجرد قصد التقرب[42].

وأما القسم الثالث، وهو تجرد حظ النفس، فقد اعتبره العلماء موجبا للعقاب، لأنه تغيير للعبادة عن موضعها الذي خلقت لأجله، وتحويل لها عن المقصد الذي أريدت له، وهو الامتثال والعبودية، فـ«كل من توجه إلى المقصد، ولم ينتهض له، أو إلى جهته، لا على قصد الامتثال والعبودية، بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين، فله نزل من حميم وتصلية جحيم»[43].

فقد تضمن هذا الكلام بيان أمرين:

39- كتاب النية والإخلاص والصدق: 4/ 495

40- المصدر نفسه: 502/4

41- المصدر نفسه: 504/4، الأربعين في أصول الدين: 140-141

42- كتاب النية والإخلاص والصدق: 501/4

43- كتاب العلم من الإحياء: 76/1، كتاب النية والإخلاص والصدق: 509/4

أحـدهما: أن لا يـتوجه العـبد إلى المقـصد أصلا ألبتة، وهو العقائد التي تعبد الله تعالى الخلـق بهـا، فـيكون قـد ابتغـى فيها ما لم تشرع له، لأن الله تعالى كلفه اعتقادها والعمل بمقتضاها، وهو قد عطلها.
والثاني: أن يتوجه إلى المقصد، لكن لغرض دنيوي، فقد ناقض قصد الشارع في عقائده، وهو الامتثال والعبودية.

فهـذا آخـر ما أردنا ذكره في البحث، وقد أوردنا فيه مسائل كثيرة، تدل على علو كعب الشيخ الأسمر في مقاصد العقيدة، وأن بضاعته في هذا الفن وافرة، ونحلته في ذكر محاسن الشريعة كاملة.

هـذا، وقـد بقـيت أمـور أخـر، تفتقـر إلى مزيد تحقيق، من خلال استقراء جميع توالـيفه، ونخـل معظـم تـصانيفه، الـتي تصح نسبتها إليه. والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

ثبت المصادر والمراجع

1. إلجام العوام عن علم الكلام، مجموعة رسائل الإمام الغزالي (4)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406- 1986.
2. إحياء علوم الدين، الغزالي، مطبعة البابي الحلبي، 1358-1939. ومطبعة المكتبة العصرية، بيروت، 1992.
3. الأربعين في أصول الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1409- 1988.
4. الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1409- 1988.
5. كلام في المغيبات، مخطوط ضمن مجموع بالمكتبة الوطنية بالرباط، رقم د 2415، من صفحة 162 إلى 167
6. المنقذ من الضلال، طبعة دار العلم للجميع. د.ت.
7. ميزان العمل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1409-1989.
8. الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، شرحه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411-1991.
9. النصيحة الصغرى، للشيخ الأسمر، منشورة ضمن مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام ابن سليم لمحمد بن محمد بن عمر مخلوف وهو (كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر رضي الله عنه) لمؤلفه كريم الدين البرموني، تونس، 1325